

## عمي بوشناق

فصص تأليف عبد الرحمن الفاسي

( الرباط - وزارة الثقافة ، ١٣٨ صفحة )

قبل سنتين دار نقاش في احد اروقة جامعة ميتسغان في آن اربن في الولايات المتحدة الاميريكية حول الادب العربي المعاصر . فسالت البروفسور نرفور نكاسك Le classic Le المخصص في تدريس القصة العربية في تلك الجامعة ، سألته : « بم نطلل عدم استرخان الفاري الغربي للقصة العربية على الرغم من انكم قد ترجمتم افضل افاصيصنا ورواياتنا الي حظي باعجاب الفراء العرب ترجمة سليمة وبأسلوب رفيع ؟ أهو اخلاص في الدوق بين قرائنا وقرائكم ، ام هو تباين في المقاييس التي نحكمها في جودة العمل القصصي ؟ » .

فارتسمت على وجهه ابتسامة استشففت منها انه مقدم على التخلي عن التلميح والايحاء اللذين يتصف بهما الانكليز من امثاله ، وانه سيحجب بلا مداراة ولا مجاملة . وناكد لي صواب حدسي حين قال : « بالاضافة الى ما ذكرت ، فاني اعتقد بان السبب الاكثر اهمية هو ان القاص العربي لما يوفق بعد في استخدام الرمز في اعماله الادبية . وانت تعلم ان نجاح القصة يتوقف الى حد بعيد على مطابقتها للقراءة على اكثر من مستوى واحد ، بحيث تسمح للقارئ الناضج بقراءتين على الاقل ، احدهما سطحية للمتعة ، والاخرى تحليلية لدراسة صنعة الكاتب من حيث البنية ، والاسلوب ، والفكرة التي تكمن وراء التأثيرات البلاغية التي يستخدمها . وتتيح له هذه القراءة فرصة الفوص في رؤى الكاتب ليكتشف فيه فنا ، او عالم نفس اجتماعيا ، او فيلسوفا ، او شاعرا . اما القارئ المنمرس او الناقد فيستطيع ان يجمع بين قراءة التمتع والقراءة التحليلية في خبرة جمالية واحدة . وهذا ما تفتقر اليه القصة العربية . صحيح ان هنالك محاولات في هذا المضمار قام بها بعض الكتاب الشباب ، ولكن صبغة التقليد لما يجري في الادب الغربية طافية عليها ، كما ان مضامين اعمالهم لم تسلم من تأثير الانثروبولوجيا الغربية . »

ثم ابتسم بلطف وقال بصيغة التعميز :

« اعطني قصة عربية واحدة تستمد حوادنها من بيئتك ، وتمتاز بسلاسة الاسلوب القصصي ، وتستخدم الرمز بوعي ودقة بحيث تحتل تفسيراً جدياً يشغل الفكر اضافة الى المعنى الروائي الظاهر الذي يسلي العين » .

وصمت وفي قلبي سؤال وابتهاج : رباه الم تكفنا مئة سنة من التجربة القصصية لبلوغ ذلك الشاؤ الذي اشار اليه البروفسور لكاسك ؟!

وثناء اقامتي الطيبة في المغرب ، اتبحت لي فرصة قراءة اعمال الاستاذ عبدالرحمن الفاسي ومن بينها اقصوصة « عمي بوشناق » التي ما ان انتهيت من قراءتها حتى الفيتني ارسلاها بالبريد السوي البرفسور لكاسك .

عمي بوشناق هو قهوجي السوق ومؤذن المسجد في مدينة فاس

القديمة . شيخ وقور بلحيته البيضاء ، وعمامته الحمراء ، وقفظانه الاخضر ، وسرواله الاسود ، و « فشابته » ذات الصوف الاحمر . اتخذ سقاية الشارع مقراً له . وكانت تساعده في اعداد القهوة ابتسه الصغيرة « عويشة » التي كانت تغافل اباه الشيخ احيانا فتضع يدها على قطعة من السكر تقضمها قضمًا . وكانت تمتاز بخشونة وصلابة يخشاها بسببهما جميع اطفال الحي . ومن ربح من الزمن اختفت بعده عويشة من السوق ، فقد صارت من ربات الخدور . اما عمي بوشناق فلم يخف يوماً عن الانظار ، ولم يتغيب ساعة عن الشارع ، فهو رهين السقاية لا يبرحها الا ليقوم بنورته الرتيبة يوزع كؤوس القهوة والشاي على اصحاب الدكاكين المتراسة على جانبي الطريق ، وما كانت سنه العالية لتقل من نشاطه او تقصد به عن القيام بمهنته ، فهو دائم الحركة ، دائم النشاط ، يعد القهوة والشاي تارة ، ويفرغ الكؤوس ويجففها اخرى ، وطورا يكنس ما حوله من الارض ثم ينضحه بالماء ، حتى اذا خدر النهار ، واستمرت الهاجرة ، انتصب الشيخ وسط الشارع وصاح بصوته الاجش : « الصلاة على النبي » ، فتدوي في الشارع على امتداده هممة ترجيع التصلية ، ثم حركة وقمع الاقدام تنسل من حافات الدكاكين الى مسجد « جامع الزليج » .

وكان الشيخ رجل بركة وخير ، يفعم قلبه الرضى ، لولا ان الدنيا صارت غير الدنيا ، والارض تبدلت غير الارض ، والناس انقلبت غير الناس . واخذ الشيخ يتبرم بالنساء متبرجات متهاديات في جلابيب الرجال ، وافبال الشباب على شرب الدخان وقص الشعر . وغدا نائراً يصب اللعنات على بائع ومبتاع « العشيبة الخبيثة » ويكفر مدخنها . وكان انتشار حوانيت الدخان بشوارع فاس ، ونمو حركة شراء السجائر وانتشارها بين الكبير والصغير صدمة له تلقاها بهدوء ، ولكنه هدوء التناغم المفجوع . ومع تصرم الشهور « اصبح الشيخ متطويا على نفسه هامدا خامدا ، واصبحت نورته اطرافا طويلا وسهوما متواصلا ، ثم اختفى فجأة فلم يعرف احد عن امره شيئاً ..

« وذات يوم ، شاهد اهل الحي شيخا ضامرا فانيا ، معروفا مرهونا ، قد استند الى سقاية الشارع ، تارة يمد ذراعيه مقلصا اصابعه كمن يحال للقبض على شيء ، وتارة يهوى بيديه في الفضاء كمن يتوعد احدا ، وبين يديه كومة كبيرة من اعقاب السجائر ، يدس واحدا منها اثر آخر بين شفتيه ، ثم يظل الشيخ يهرق ويهذي ، فلا يتيسر للناس منه غير هذه الكلمات :

ايه ... « عويشة » تشرب الدخان ؟ .. زمان ! .. »

لقد نشرت هذه القصة لاول مرة في جريدة ( الوداد ) المغربية في ابريل سنة ١٩٤١ ، ونقلتها مجلة ( الثريا ) التونسية بعدد مارس ١٩٤٦ ، ثم ظهرت عام ١٩٧٢ في مجموعة قصصية للاستاذ الفاسي تحمل عنوان « عمي بوشناق » في سلسلة « القلم » التي تصدرها وزارة الثقافة المغربية . وارى ان لكل مرة نشرت فيها هذه الاقصوصة دلالة ومغزى . فظهورها سنة ١٩٤١ يحدسنا على الاعجاب بالمؤلف واكباره ، فعلى الرغم من انه لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين من عمره آنذاك استطاع ان يحيط بأسرار الفن القصصي شكلا واسلوبا ومضمونا . فقد حقق الفنية الشكلية كما تعارف عليها النقاد يومذاك ، فكانت « عمي بوشناق » قصة متكاملة من حيث احتواؤها على المقدمة والعقدة والحل . ويمتاز اسلوبه بالاناقة الفنية التي « تعتمد على اختيار اللفظة وتنسيق الجملة والفقرة ، فهو ممن كتاب القرن الرابع ( الهجري ) المجيدين في القرن العشرين ، وهو يأسر باسلوبه البديع اكثر مما يأسر بخياله او تصويره ، كما قال عنه

الاستاذ عبد الكريم غلاب (١) . ولعل في الفقرات التي اقتبسها من قصة « عمي بوشناق » مثلا على جزالة الاسلوب ودقة تصوير الشخصيات . واما المضمون ، وهو مدار بحثنا اليوم ، فيكفي المؤلف فخرا انه تصدى قبل اكثر من ثلاثين عاما امضلة يعانيها المجتمع العربي حاليا ، واخذ مفكرونا مؤخرا يولونها اهتماما بالغا لدرجة ان عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي كرس معظم مؤلفاته وابعائه لدراستها ، تلك هي مشكلة « الازدواجية » .

وتشير اعادة نشر قصة « عمي بوشناق » في تونس الى ان ظاهرة « الازدواجية » لم تكن مقتصرة على المغرب فحسب ، بل تمتد الى الكثير من المجتمعات النامية التي خضعت للاستعمار الغربي سياسيا او اقتصاديا او فكريا .

واما قيام وزارة الثقافة المغربية مؤخرا باصدار مجموعة قصصية بعنوان « عمي بوشناق » للاستاذ عبدالرحمن الفاسي على الرغم من انقطاعه منذ زمن ليس بالقصير عن كتابة القصة لانصرافه الى النقد الادبي والابحاث التاريخية والسياسية ، ولانشغاله في السلك الدبلوماسي حيث عمل سفيرا بلاده في الاردن والسودان وسوريا والعراق ، اقول ان قيام وزارة الثقافة - ممثلة في الاستاذ محمد الصباغ مدير مصلحة الادب فيها - بنشر « عمي بوشناق » ينم عن رغبتها في تكريم رواد الادب القصصي في المغرب ، اذ يعد عبدالرحمن الفاسي ، وعبدالكريم غلاب ، وعبدالمجيد بن جلون ، وعبد الخالق الطريس ، وعلال الجامعي ، واحمد بناني ، وعبدالله ابراهيم من ابرز هؤلاء الرواد الذين لهم الفضل في تطوير الفن القصصي في المغرب . وناحية اخرى استهدفتها وزارة الثقافة من اصدار « عمي بوشناق » هي اعطاء مثال للقصة الرصينة الهادفة بعد ان شاعت « موضة » اقايص اللامعقول والعبث التي يصعب على القارئ استساغتها والتي لا تسهم بزخم كبير في معركة البناء .

وتستمد قصة « عمي بوشناق » اهميتها من اتجاهها ولغتها وبنائها . فمن حيث الاتجاه ، يمكن اعتبارها نقطة تحول في تاريخ الفن القصصي في المغرب وتطوره . اذ انها كتبت ونشرت في فترة سادت فيها القصة الوعظية والقصة التاريخية (٢) . وكان بعض القصاصين المغاربة قد انتهجوا النزعة الوعظية في كتاباتهم آنذاك بوازع ديني او دافع اخلاقي . ويمكن ان نمثل لهذا الاتجاه بقصة « عجائب الافئدة او عواقب الاصرار » لمصطفى الفرباوي التي كتبت سنة ١٩٣٨ . وانتهج البعض الآخر القصة التاريخية التي تقدم صورا من بطولات العرب والمسلمين عبر تاريخهم الزاخر بالاحداث الجسام ، وذلك في محاولة من هؤلاء الكتاب لتوليد شحنة نصالية وبعث الثقة بالنفس لدى ابناء المغرب . ويمكن التمثيل لهذا النوع من القصص بقصة ( تاسيس ) لعلال الجامعي ، وقصة ( علماء المرية ) لعبدالله ابراهيم اللتين صدرتا عام ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على التوالي . ولم يكن المغرب المسرح الوحيد للقصة التاريخية في تلك الفترة ، بل نجد كتاب المشرق ايضا يسلكون الاتجاه ذاته ، فقصص نجيب محفوظ الثلاث ( عبث الاقدار ) و ( رادوبيس ) و ( كفاح طيبة ) التي ظهرت في

الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٤٤ هي قصص تاريخية . وفي تلك الاثناء تبرز « عمي بوشناق » نجمة فريدة في سماء القصة المغربية تهبها بعدا جديدا وتوجهها الى حيث يجب ان تكون ، الى الجهة المقاتلة ، الى الواقعية الاجتماعية . وتطلب هذا التحول تغييرا جذريا في لغة القصة وموضوعاتها . فتخلصت « عمي بوشناق » من اللهجة الخطابية ، والاسلوب التقريري ، والفقرات التوجيهية التي كان ينشرها الكتاب هنا وهناك مقاطعين بها سير الحدث القصصي .

كما انها ، من ناحية اخرى ، لم تقع ضحية الفهم الخاطيء للواقعية الذي ادى الى استخدام اللهجة العامية في الاعمال الادبية . فقد كان الفاسي يدرك معنى الواقعية الفنية ادراكا عميقا جنبه التورط في استعمال العامية في الوصف او الحوار ، في وقت وجد غيره من رواد الواقعية الاجتماعية في العالم العربي انفسهم وجها لوجه مع مشكلة الثنائية اللغوية في مجتمعنا حيث توجد لغة فصحي تستخدم للاغراض الكتابية وفي الاحاديث ذات الطابع الرسمي ، ولغة عامية دارجة يستخدمها الناس في اتصالاتهم اليومية العادية . وعز على الكتاب الواقعيين ان ينطقوا اشخاصهم الشعبيين بلغة فصحي نحوية . وراوا في ذلك تناقضا مع الواقعية التي ينتهجونها . وعانى المشكلة عبد الملك النوري وغائب طعمة فرمان في العراق ويوسف السباعي وغيره في مصر . وراى هؤلاء الكتاب ان على القصة الواقعية ان تكون امينة في تصوير الواقع الاجتماعي بما في ذلك ثنائه اللغوية .

وهكذا كان تحليل القاص للاحداث والشخصيات ووصفه للزمان والمكان يضافان بأسلوب فصيح ، اما الحوار بين شخصيات القصة انفسهم فكان بلهجتهم العامية الدارجة (٣) . وساد هذا الاتجاه في القصة الواقعية العربية فترة طويلة من الزمن حتى انبرت اصوات تصحح الوضع (٤) . فاعلن محمد مندور في عام ١٩٥٩ ان « المؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهم ، والواقعية ليست في اللغة وانما في التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقة هذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منه والخفي ، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه او لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو ان المؤلف يعبر بلغته هو ولسانه ، وكل ما يطلب منه هو ان يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان في ذلك - من الناحية الفنية - ان يستخدم لغة عربية فصيحة او عامية او اية لغة اخرى » (٥) . وايد نجيب محفوظ ذلك عام ١٩٦٠ بقوله :

(١) ليست الواقعية صورة لما يقع ، ولكن صورة لما يحتمل وقوعه . والواقع يتغير في الواقعية . ولها معادلة هي : الواقعية = الواقع + الفن . فالشخص في الحياة ليس حرفيا في الرواية . وكذلك الحداث والمكان والزمان . » (٦)

(٣) وغالى بعض الكتاب في ذلك حتى امست قصصهم اقلية لا تفهم في غير البلد الذي كتبت فيه . ولعل افايص غائب طعمة فرمان في مجموعته « عمي عبرني » خير مثال على ما نقول ، فعلى الرغم من جودتها الفنية فهي لا تقرأ ولا تفهم الا في العراق .

(٤) انظر زكي عبد الملك ، « الاسلوب القصصي بين العامية والفصحى » في مجلة فكر وفن ، عدد ١٨ ( ١٩٧١ ) ص ٤٦ - ٥٠ .

(٥) محمد مندور ، المسرح النثري ( القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩ ) ص ٧١ .

(٦) فاروق شوشة ، « مع الادباء » في مجلة الاداب يونيو ( ١٩٦٠ ) ص ١٩ .

(١) عبد الكريم غلاب ، « تطور الادب القصصي في المغرب العربي . » في المحاضرات الثقافية الاسبوعية ، الجزء الاول ، ص ١٣٦ ( الرباط : وزارة الثقافة ، ١٩٦٩ ) .

(٢) احمد اليابوري ، « تطور الفن القصصي في المغرب ، ٣ : القصة الوعظية والقصة التاريخية » في مجلة الباحث ، المجلد الثاني ( ١٩٧٢ ) ص ٢٦٩ - ٢٨٥ .

واخذ القصاصون يتخلون بالندريج عن فكرة استخدام العامية في الحوار القصصي، رغم أن البعض ما زال يتمسك بها مثل القاصين التونسيين بشير خريف ومحمد رشاد الحمزاوي . أما الأستاذ عبد الرحمن الفاسي فإنه فهم الواقعية باطارها الصحيح ، ولهذا فانت تقرأ مجموعة « عمي بوشناق » باكملها ولا تعثر على كلمة عامية واحدة ، بل على العكس تعجب بلفة المؤلف الفصيحة التي تجمع بين المانة والسلاسة والوضوح .

وقراءتي التحليلية لقصة « عمي بوشناق » تقنعني بما لا يقبل الشك بان موضوعها يعالج مشكلة الازدواجية في المجتمع المغربي . ويعرف المفكر المغربي الأستاذ محمد بن البشير الازدواج بأنه « اتباع طريقين مختلفين في آن واحد ، فهو في اللغة والثقافة مسايرة لغتين وثقافتين بصفة موازية . ومما لا ريب فيه ان هذا النوع من الازدواج كثيرا ما يخلق ازدواجاً في العقلية والتفكير . » (٧)

وكانت الازدواجية في المجتمع المغربي قد ظهرت نتيجة للاستعمار والاستيطان الفرنسيين اللذين استهدفا نشر الثقافة الفرنسية طبعا لخطة مبروسة . وكانت المدرسة واللغة وسيلتين رئيسيتين في تحقيق ذلك الهدف . وادراك المفكرون المغاربة النتائج الوخيمة لتلك الازدواجية الثقافية على صعيد الفرد والمجتمع والوطن . وفي هذا يقول الأستاذ ابن البشير :

« ولتباين الثقافتين العربية والفرنسية ، وتباعدها المعيشة والعوائد والآراء بين اصحاب الثقافتين لا نجد الا نادرا شخصا اندمجت فيه العقليتان والثقافتان فاصبح حصيلة موحدة منسجمة تمثل نوعاً متزناً صالحاً من المواطنين . الحقيقة اذن ان الازدواج في الثقافة يخلق شخصا متارجحاً ، اختلت وحدانيته فسي الاتجاه والتفكير . » (٨)

(٧) محمد بن البشير ، « الازدواج والتخلف الثقافي » في مجلة الثقافة المغربية ، الجزء السادس ( ١٩٧٢ ) ص ١٢١ .  
(٨) المصدر السابق .

ولعل القارئ يتساءل عن معنى التارجح في الشخصية واختلال الوحدانية في التفكير اللذين اشار اليهما الاسناد ابن البشير ، فاسمح لنفسي بان اضرب مثالا على ذلك في فتاة نشأت في اسرة دينية وتلقت تعليمها في المدارس الاجنبية في احدى البلاد العربية . ولقد رايتها ذات مساء تريح رأسها على صدر والدها الشيخ طالبة منه ان يتلو لها بعض الادعية والتعاويذ لتبرأ من صداع الم بها . ولقد شعرت فعلا بارتياح اتجهت على اثره الى مرقص ليلى لتضمي السهرة فيه واخذت تتحدث هناك عن علاقاتها قبل الزواج بوصفها صدقات عابرة وذكريات طيبة . وفي الصباح كانت تخاطب امها بالعربية بينما كانت تكتب رسالة بالانكليزية الى اخيها الذي يدرس في الولايات المتحدة .

ان « عمي بوشناق » محاولة فنية جيدة لتصوير اخطار الازدواجية التي ذكرنا . ولقد وفق الفاسي في اختيار المكان والزمان والشخصيات والاحداث . فلم يختر فاس لانها مسقط رأسه ولان معرفته بدروبها واناسها تحقق له الصدق الفني فحسب ، بل لانها عاصمة المغرب الروحية ايضا . وتعد جامعة القرويين بفاس من اجل مراكز الحضارة العربية الاسلامية . وفاس معروفة بمحافظتها على تقاليد تلك الحضارة واعرافها . ومن هنا فان اي صراع حضاري سيكون على اشده في مدينة كهذه . لكل هذا اختار المؤلف فاس ليرمز الى المغرب برمته . واضفى الكاتب صيغة دينية على بطله « عمي بوشناق » فهو لم يكن فهوجي السوق فحسب بل مؤذن الجامع كذلك . وهكذا يستطيع ان يرمز به الى الشعب المغربي الذي طبعته الثقافة الاسلامية بطابعها المميز . اما التنافس بين الدخان والقهوة فهو صراع بين قيم الحضارة الفرنسية الفازية والحضارة العربية الاسلامية المفزوة . واذا كان بعض ابناء الجيل الجديد ( عويشة ) ينساق وراء المظاهر الخلابسة للحضارة الفازية ويتقبلها ، فان لهذا اثره الخطر على الشعب المغربي الذي قد يفقد وحدانيته في الاتجاه والتفكير ( وقد رمز الكاتب الى ذلك الخطر بما اصاب عمي بوشناق الذي اختلت قواه العقلية في نهاية القصة ) .

### علي الفاسمي

## قالوا عن كتاب

# حُب

تأليف غادة السمان

لا تكتفي غادة السمان بالتعبير عن الانسحاق المطلق مع نوازع الجسد بل تحاول التبشير بما يمكن ان نسميه بعبادة الجنس !

رشيد ياسين - المحرر

اذا كان الشعر يسكن اعماق اشياء الحياة ( الموت ، الالم ، الحب ، التضحية ) فان غادة السمان الكاتبة والقاصة ، هي شاعرة قبل كل شيء ! ..

نهاد سلامة - الصفاء

الحب الذي تحكي عنه غادة السمان أساسه الحرية ، وكردة فعل عن كل كتب حب المرأة العربية من الف سنة ، أرادت غادة السمان ان تحب عنهن جميعا . هدى الحسيني - الانوار  
تذهب غادة دوما الى اعماق الاشياء ، وتستطيع ان تكون غنائية ، او ساخرة كما تستطيع ان تستحضر برقة الحب الطفولي ، وأن تصرح بالحقيقة بجرأة واخلاص .

ايرين موصللي - الاوربان لوجور

منشورات دار الآداب

بعيدا عن الثرثرة الرومنطقية ، والرسائل التقليدية ، تشارف غادة السمان ، بحساسية الانثى وموهبة الفنان في لحظات حميمة ، عالم الشعر تاركة على جدار القلب الانساني آثار بصماتها . . . .

عصام محفوظ - جريدة النهار  
« حب » ، هو حكاية مسيرة طويلة عرفت كيف تتجاوز نفسها دائما .

جورج الراسي - مجلة البلاغ  
سنبقى نتلهف الى مراثيات غادة السمان الحميمة ، الماضية والمقبلة .

ظافر تميم - لسان الحال